

الشَّنَانُ والبُهْتَانُ فى الهجوم على الإخوان محمد يوسف عدس

أستعيد فى هذا المقال أجواء السياسة فى فترة زمنية فريدة من تاريخ مصر وهى ماتزال تعيش فى ظلال ثورة يناير سنة ٢٠١١م .. وقد شرعت الأحزاب والقوى السياسية تعلن عن مرشحيتها لانتخابات رئيس الجمهورية .. وانطلقت الحملات الانتخابية وكأنها قد أجمعت على هدف واحد هو تشويه جماعة الإخوان المسلمين ومرشحها للرئاسة ، وكان هذا وحده كان كافيًا لترجيح كفة مرشحي الأحزاب الأخرى، حتى ولو كانوا من التكرات .. وفى هذا المقال أصف واقع الصراع السياسي وأكشف عن عورات الحملات الانتخابية وأخطارها على المناخ الإجماعي والأخلاقي.

فى لقاء متلفز قال الدكتور حسن نافعة: " إن جماعة الإخوان ستنتهى إذا نجح أبو الفتوح" .. هذه عبارة لا ينبغى أن نمر عليها مرورًا عابرا.. لذلك أسأل: هل يفسر هذا الاعتقاد سر الحملات الإعلامية الواسعة فى الدعاية لأبى الفتوح...؟! وهل الدعاية لأبى الفتوح تستلزم بالضرورة شن حملات مسعورة ضد الإخوان المسلمين.. بهذه الغلظة وهذا الانتشار.. وكان المهمة ليست انتخابات رئاسية وإنما محاولة للقضاء على هذه الجماعة واستئصالها من الوجود كُليَّةً...؟

لقد قرأت مقالات لبعض الكُتَّاب فيها نقد موضوعي للإخوان المسلمين.. ولكن الذى يجرى على الساحة الإعلامية اليوم شيء آخر، إنها حملات من القذح والتجريح والكذب.. فيها مبالغات و تكهّنات واتهامات غليظة، تنقص من قدر صاحبها أكثر مما تنال من شرف الخصم.

من هذا قول رفعت السعيد أن " الإخوان عملوا تحت حذاء مبارك" وهذا نوع الإفتراء يسميه اللغويون "بُهْتَانًا" .. ومن معانيه: أن ينسب الإنسان ما ارتكبه هو من خطيئة أو إثم إلى شخص آخر كما يتضح من الآية: " وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا" ..

وهناك من يتهم " الإخوان بأنهم "يتظاهرون بالديمقراطية ولا يحترمونها.. فهى عندهم مجرد عود ثقاب يشتعل مرة واحدة.. أو جسر يعبرون عليه إلى السلطة ثم ينسفونه" .. وهذا نوع من التفتيش فى ضمائر البشر ونواياهم.. لا دليل عليه من كلام للجماعة مكتوب أو منطوق..!

وفى إطار التخويف من الإخوان المسلمين وتشويههم يرتكب كثير من الكتاب والأكاديميين آثاما فاحشة.. فقد أنزل د. حسن نافعة د. محمد مرسى، فى ذات المنزلة التى عليها أحمد شفيق، وعمرو موسى، واعتبر الثلاثة "خطرا" على الثورة..! إنه

يعترف بوجود فارق أخلاقي ولكنه لا يعتدُّ بهذا الفارق؛ فهو من مدرسة تستبعد القيم الإخلاقية من السياسة..

للأسف الشديد يتخذ من هذا المقرب كاتبٌ صديقٌ أساساً يضيف إليه بهتاناً أكبر؛ إذ يستنتج من ردود بعض الغاضبين من عامة الإخوان "نزعة للعنف مستتراً في الوعي الجمعي الإخواني.. بكل إكسسواراته القبيحة من ظلم واستبداد وقمع وديكتاتورية".. فماذا كنت تنتظر يا صديقي من ردود أفعال شبان لم يبلغوا بعد سن الرشاد والحكمة، وهم يرون الهجوم المروّع المعبأ بالكرهية والأكاذيب على جماعتهم التي يكتون لها الحب في أعماق قلوبهم، تُهان إلى هذا الحد المروّع..؟ إنها حالة لا تبرر الغضب فحسب وإنما تبرر الجنون .. ولا يصحّ في هذه الحالة أن نتمادى في رميهم باللدن والتطرّف في الخصومة.. كما تزعم.

لقد عرفت الإخوان عن قرب منذ سنة ١٩٤٨؛ كان منهم أصدقاء وأقارب وزملاء في الدراسة والعمل ، عرفت منهم مجاهدين في فلسطين ضد الصهيونية المغتصبة، وفدائيين في قناة السويس ضد الاحتلال البريطاني .. كان بعضهم يخرج بعد كل معركة يبكي لأن الله لم يقبله شهيداً بعد.. وكان منهم ضحايا الاعتقال والتعذيب والاضطهاد والسجن بتهم باطلة.. واشهد أن بطولاتهم وتضحياته في الدفاع عن حدود مصر -بعد انهيار الجيش وانسحابه- هي التي صدّت عدوان إسحاق رابين في محاولته الالتفاف على العريش، ولولاهم لكانت العريش اليوم جزءاً من الأرض المحتلة.. ما كان هؤلاء يعتبرون أنفسهم -كما يزعم صديقي- "قديسين" أو "معصومين" من الخطأ.. ولا محصنين من "النقد" .. بل كانوا أتقياء متواضعين يحتسبون جهادهم وتضحياتهم قربة إلى الله وحده ، لا يبيغون عليها أجراً ولا يسعون إلى سمعة أو شهرة..

لا يجوز يا صديقي أن يحمك الغضب إلى اتهام مسلمين يحملون هذا التراث، باستيطان "العقيدة اليهودية" في العلاقة بين "الله" و"الإنسان" والتي تقوم على منطق "خصخصة الألوهية" .. إلى آخر هذه المزاعم الخيالية التي ترميهم بها وتقول أنها "عقدة الجماعة" التي تحتاج "إلى علاج نفسي طويل الأمد..." ثم تدعّم هذه المزاعم بمقالات أخرى، كنت أتمنى ألا تكتبها، إذ تتحدث عن نزعة طائفية للجماعة، إستناداً إلى عبارة قالها من تصفه بأنه قيادي إخواني شهير، وتفسرها على أنها دعوة لنقاء العنصر الإخواني يستوجب "تحريم" الزواج من غير الإخوانية...

والرجل أبسط من أن يفكر بهذا المنزع الأيديولوجي.. إنه ببساطة يخشى من بوار الأخوات المسلمات إذا أعرض عنهن شباب الإخوان.. وخطأه أنه جعل من هذه الرغبة الشخصية خطاباً عاماً لجمهور خارج إطار جماعته، لا يعنيه مشكلات الجماعة الخاصة.. قلّ هي سذاجة أو سوء تعبير لم يدرك صاحبه ما ينبغي أن يقال وما لا يقال

فى خطاب عام.. ولكن من ناحية أخرى: المبالغة فى تفسير عبارة انطلقت فى غير مكانها، واستنتاج نتائج لا تحتتملها هو أيضا خطأ فكريّ جسيم.. فهى ليست دليلا على منظومة قيم اجتماعية تقوم على فكرة" النقاء التنظيمي" وليست دليلا على نزعة إقصائية لغير الإخواني.. أو"التطهير المهني للمؤسسات من غير الإخوان.. كما تزعم لنا بغير دليل.

فالإخوان بحكم عقيدتهم الإسلامية القوية النقية، لا يمكن أن يفعلوا شيئا من هذا، ولا يصح أن نحكم على جماعة كبرى بحجم جماعة الإخوان المسلمين تحمل على اكتافها خبرات ٨٥ عاما من النضال والوطنية، والتضحيات، تعرضت بسبب عقيدتها لموجة بعد موجة من إرهاب الدولة واستبدادها ، ولكنها صمدت وصبرت ولم تنزلق إلى العنف الذى كانت تدفعهم إليه السلطة دفعا، عبر عقود طويلة من الاضطهاد الممنهج.. لتجد مبررا لذبحهم..

العجيب أن الذين يهاجمون محمد مرسى لابد أن يُعرجوا بالهجوم على الجماعة التى رشّحته، والذين يقَرّظون أبو الفتوح ويروجون له، لا بد لهم أيضا أن يهاجموا الجماعة وحزبها.. فيما عدا كاتب فاضل فى مقال له بعنوان: أبو الفتوح و(السيبكية الفذة) استطاع أن يمتدح د. أبو الفتوح ويعبّر بقوة عن مناقب الرجل -كما يراها- ولكنه كان عفيف اللسان؛ لم يتطرق إلى الهجوم والقدح لشخص أو جماعة أو حزب.. وبهذا أدى مهمته على أحسن ما يكون الأداء، وبلغ هدفه دون تطاول ولا إيذاء.. ولم يتمادى فى خصومة تززع مصداقيته عند أصحاب العقول، و لم يتورط فى الحديث عن الرّق الإخواني، ولم يصف مشروعهم بأنه لا يصلح لأن يكون مشروع دكان بقالة...

ولم يعتبر تعدد الانتماءات انتقاصا من أهلية محمد مرسى أو تناقضا مع السيادة الوطنية المصرية.. فكلنا ننتمى بكل حب وإخلاص للوطنية المصرية، كما ننتمى بنفس المشاعر الحميمة للوحدة العربية ، و للجامعة الإسلامية.. وبالنسبة لى شخصا أنا أنتمى أيضا لحركة عالمية أوسع تسعى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية والتحرر من النهب الرأسمالي البشع لثروات الشعوب.. وقد ألّفت فى هذا الموضوع كتابا نفذت نسخه بعد صدوره فى بضعة أسابيع..

إننى أستشعر فى الهجوم الشامل المروّع على الجماعة التى حظيت بأغلبية الأصوات فى الانتخابات البرلمانية، نفس الأجواء الملبّدة بالندى التى مهّدت لسيناريو جنرالات الجيش الجزائري فى الانقضاء على جبهة الانقاذ الإسلامية التى حظيت بثمانين فى المائة من مقاعد البرلمان فى أول انتخابات حرة سنة ١٩٩١، فشن عليها العلمانيون هجوما ضاريا واستعدّوا عليها جنرالات الجيش الجزائري فركبوا الموجة ،

وأصدروا قرارا بإلغاء الانتخابات وحل الحزب.. و جاء فى قرار الحل: "إن فوز الجبهة الإسلامية للانقاذ هو تهديد للتجربة الديمقراطية الفتية".. كما يقول خصوم الإخوان اليوم فى مصر.. وكانت النتيجة أن الجنرالات سحقوا الديمقراطية، و أقاموا دكتاتورية دموية فى الجزائر، راح ضحيتها أكثر من مائتي ألف من الأبرياء...؟ ولا تزال الجزائر تعاني من آثار هذه النكبة حتى اليوم.. بفضل حماقة العلمانيين والانتهازيين والحاقدين على شعبية الحركة الإسلامية..

فى التمهيد لهذا السيناريو الخبيث أشير إلى الحقائق التالية: التهديد بإلغاء الجماعة وإغلاق شعبها فى كل مكان بمصر.. والتهديد بإلغاء الانتخابات البرلمانية.. وتهديد أحمد شفيق فى أسوان بأنه سيعيد مصر إلى ما كانت عليه من قبل.. وقد أصدر المجلس العسكرى قانونا بتجريم الإضرابات وحرّض إعلامه لشحن المجتمع ضدها.. كل هذا يصب فى مجرى هذا السيناريو الخبيث ويمهّد له.. ربما يكون المجلس العسكرى بإزاء ردود الفعل المليونية المتوقعة أضعف من أن يقدم مباشرة وبنفسه على خطوة كالتى أقدم عليها جنرالات الجزائر.. ولكن يمكنه أن يساند لتحقيق خطئه- رئيسا فلولياً من بقايا عهد مبارك، أو رئيسا بينه وبين الإخوان خصومة صنعها الإعلام، يصطدم بالإخوان، ثم يتم الاعتداء على حياته أو اغتياله، ثم توجّه التهمة للإخوان، وحتى لو نجح مرشح الإخوان فهناك خطط بديلة وسيناريوهات خبيثة لإشاعة الفوضى والاضطراب العارم والاعتيالات وصولاً إلى التدخل العسكرى وفرض دكتاتورية فاشية جديدة على غرار نظام مبارك.. أو أسوء منه..

يأيتها الكتّاب {... لا يجرمَنكم شأن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى}..ولا تكونوا كالشعراء الهجّائين الكذابين، الذين يقول الله فيهم:

{وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ* أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ* وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ}..
وحذر منهم الجاحظ وأنشد أبياتا لـ"أبو الدّلهان" يقول فيها:

وللشعراء ألسنة حدادٌ ... على العورات موفيةً دليله
ومن عقلٍ الكريم إذا اتّقاهم ... وداراهم مُداراةً جميله
إذا وضعوا مكاييهم عليه ... وإن كذبوا فليس لهنّ حيله

والآن بعد أن انطوى الزمن وحلّ بدارنا بلاء الانقلاب العسكري فهل ترى الصورة
بعيدة عن السيناريو الخبيث الذي تخوّفناه وحدّرنا منه..؟!

myades34@gmail.com

(نشر المقال في جريدة الشعب بتاريخ ٣ أغسطس ٢٠١٧م)